

## صدور المشاركة والمغاربة

قطب الدين الشيرازي<sup>(١)</sup>

هو القاضي قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي كان اماماً مبرزاً في عدة علوم مثل العلم الرياضي والمنطق وفنون الحكمة والطب والأصول وله عدة مصنفات وفضائل مشهورة . كان مولده بمدينة شيراز في صفر سنة أربع وثلاثين وستائة وتوفي بتبريز سنة عشر وسبعمائة فتكون مدة عمره ستاً وسبعين سنة وسبعة أشهر مخلصاً عن تاريخ ابي الفدا وقال ابن الوردي انه توفي وهو في عشر الثمانين وكان غزير العلم واسع الصدر حسن الاخلاق وجيباً عند التبر وغيرهم ثم قال في رثائه

قد عدم الاسلام جبراً مبرزاً . كريم السجايا فيه مع بعده قرب  
عجبت وقد دارت رحا العلم بعده وهل للرحا دور وقد عدم التطب

وقال الشيخ طاهر الجزائري في كُنْأَشِهِ<sup>(٢)</sup> وفتت على كتاب في تراجم أناس من المشهورين جمع الامام العلامة نجم الدين أبي الخير سعيد بن عبد الله الدهلي البغدادي وفيه ترجمة لقطب الشيرازي وهي ناقصة في النسخة فاثبتتها على ما وجدت بها اعتناء بهذا العلامة الأوحد : ومنها كتاب أقليدس<sup>(٣)</sup> وهو باللغة الفارسية أيضاً صنّفه باسم البرواناه وزير الروم

(١) ملخصة عن رسالة استنسخها شكري افندي المسلمي من رسالة كتبت بخط سليم افندي البطارى من علماء دمشق (٢) الكناشة أوراق تجمل كالدفر نقيذ فيها الفوائد والشواهد (٣) من كتب الترجمة به ما ذكره الشيخ طاهر الجزائري في كناشه ايضاً مشكلات التفسير توجد نسخة منه في مكتبة بيكي جامع بالاستانة والانتصاف شرح الكشاف في مكتبة راعب باشا وتفسير النطب في مكتبة أسد افندي وشرح مختصر ابن حاجب في مكتبة الكوبرلي وشرح حكمة الاشراف في مكتبة الالهلي وشرح النجاة في مكتبة الراغب والتحفة الشاهانية في الفلك ونهاية الادراك في علم الانلاك في مكتبة بيكي جامع وفي المكتبة الخديوية شرح للقوشجي على التحفة الشاهانية وشرح القسم الثالث من مفتاح العلوم في الماني والبيان وله كتاب في الهبشة ويقال ان من مؤلفاته حل مشكلات الجسطي وله كتاب حكمة الاشراف طبع بالهند ومن مؤلفاته « فتح المنان تفسير القرآن » في نحو ثلاثين مجلداً يوجد في مكاتب الاستانة وله كتاب تاج العلوم محفوظ في خزائن كتب الاستانة وغيرها من المصنفات التي ذكرها صاحب كشف الظنون

ومن جليل مصنفاته شرح كليات القانون في الطب لابن سينا وهذا الشرح لم تسمح قريحة  
بمثله لأنه يشتمل على خلاصة الشروح المصنفة لهذا الكتاب وهي عشرة شروح اجتمعت  
عنده مع تنقيحات لطيفة وزيادات غريبة من نتائج خاطره الغزيرة من كتب عزيزة  
الوجود قد لا يوجد مثلها الا في خزائن الملوك وسماه التحفة السعدية يعني باسم الوزير  
سعد الدين محمد الساوجي وزير الملك غازان وبعده أخيه (كذا) خر بنده واتفق ان  
هذا الكتاب تم شرحه وسيره الى الوزير المذكور وفي اثناء هذه الحال توفي الشيخ  
قطب الدين ووقع الترسيم والتوكيل على الوزير المذكور وطولب بالاموال وذلك في  
أذربيجان سنة عشر وسبعمائة وقصد خر بنده العراق والوزير صحبته لتحصيل المطلوب  
منه الى ان قتله ليلة السبت حادي عشر شوال سنة احدى عشرة بمحول قريب بنداد  
ومع ما كان فيه هذا الوزير من المضايقة رسم لقطب الدين جائزة هذا الشرح مبلغ  
سنة آلاف دينار رائج عنها من الدراهم ستة وثلاثون الف درهم وراجعوا الوزير سعد  
الدين في ذلك وعرفوه بوفاة الشيخ قطب الدين فقال الوزير انا لا أعود في هبتي وخصوصاً  
لمثله وفي مثل كتابه فأحضر جميع المال المذكور وجمع له أرباب الديون قضى عنه  
ما كان عليه من الديون القديمة والحديثة التي كانت قد اجتمعت عليه مدة المرض وكان قد  
بقي مريضاً احد وخمسين يوماً وكان معظم نفقته في هذه العلة الصدقة على الفقراء وعلى  
حلبة العلم وبقية من المال بقية وزعت على أولاده وخاصته وكان هذا الوزير قد أنعم  
بهذه الجائزة وهو يومئذ تحت التوكيل وهو مطالب بألف كومان من المال منها عشرة  
آلاف دينار رائج فانظر الى علو همة هذا الرجل وسعة نفسه وصدق اعتقاده . . .

وكان له مع المشايخ الصالحين والصوفية المحققين اتصال حقيقي ونفس روحاني يرتاح  
اليهم في أوقات خلواته وصفاء مشروباته قال: وقد لازمت ذراه المحروس ثمانى عشرة  
سنة فشاهدت معظم سيرته تشتمل على الاخلاق الشريفة والنضال الكاملة مع السخاء  
المفرط. كان لا يبقى على شيء مما يحصل بيده لاني سفر ولا في حضر وكان أكثر

صلاه الفقراء وطلبة العلم وذوي البيوت القديمة وذوي الحاجات قال ولقد حضر عنده في بعض الأيام مائتا دينار قبله ان صفي الدين عبد المؤمن بن فاخر صاحب الموسيقى قد قدم من بغداد لضرورة ديون عليه قد غلبته فقال هذا من بيت له خدمة قديمة للخليفة العباسي فبعث اليه بالمبلغ المذكور واعتذر اليه انه لم يكن عنده في هذا الوقت غير هذا المقدار . قال : وكان يقول في مرض موته ليست فائدة المهلة في حياتي الا لاعطي الفقراء شيئاً فكان مصماً على العطاء والاحسان وفعل الخير الى ان صار الى احسن مصير . قال وكان في أسفاره يصحبه من التلاميذ جماعات وخصوصاً في أيام توجبه الى خراسان والروم فلقد اجتمع معه في سفره الى الروم نحو الاربعين طالباً وغالبهم أرباب فضائل وعلوم راسخة وكان يخدمهم بالمال والنفس والعلم وكانوا مع هذا يتمصونه وما يضلهم معهم من الخدمة والخير ويقولون هذا الرجل متطفل علينا لأن الناس انما يخدمونه ويعطونه الأموال لأجلنا ونحن الذين نشيد كلمته ونظهر فضيلته ونجمله بين الناس . قال وكان يلقه هذا وامثاله عنهم فلا يغضب ولا يلتفت الى قول القائل اليه ذلك ويقول : انا أريض اخلاقي بالصفح عن زلات اخواني الي

وقال الاربلي : واخبرني الشيخ ضياء الدين الطومبي قال : اجتمعت بقطب الدين الشيرازي قزوين وهو يقرأ الفقه على الشيخ علاء الدين الطاووسي صاحب التعليقة قال فسأته عن بعض احواله فحك لي اشتغاله بالطلب وانه ترك معالجة الناس وخرج من شيراز وقصد بلاد خراسان وانه توفر مدة سنين على تحصيل علم المقولات من علم الكلام قال وقال لي ما وجدت نفسي في عمري متوفراً على طلب العلم لم اشتغل بسوى ( كذا ) هاتين السنتين هما كاتاخير تحصيل حصلت فيهما من العلوم النظرية ما احباني لكني غير عالم بالفقه قصدت الشيخ علاء الدين الطاووسي لا قرأ عليه الفقه قرأت عليه الحاوي الصغير وكتاب الوجيز وكانت للشيخ علاء الدين نسخة من الوجيز محشاة بالموثود اللطيفة من الفقه فسرقها وهرب من قزوين قال : وهكذا كانت عادته اذا اعجبه

كتاب تحليل حتى يسرقه وكان مشهوراً بين ضلّة العلم في مبادي احواله بهذا الوصف قال وطلب علاء الدين نسخه فلم يجدها فقالوا لم يكن عندك غير محمود الشيرازي فقال ليس هو أخذها وقال لي مهذب الدين الشيرازي احد تلاميذ قطب الدين ان قطب الدين كان يلقي الدروس من هذه النسخة بمدينة سيواس ويقول هذه النسخة سرقها من شيخي علاء الدين الطاووسي بقزوين في مبدأ تحصيل العلم وكنت عاجزاً عن مشرى الكتب

ولما عمر ملك خوارزم تلك مارستاناً انفذ الشيخ قطب الدين اليه رسم هذا المارستان كتاباً طية قيمتها بالتقريب اربعة آلاف درهم فاجازه بجائزة تشتمل على رقيق قاش وقد قيمة الجميع مئة وثلاثون الف درهم . وصف كتاباً باسم الملك عز الدين ملك شيراز في علم الاخلاق والحكمة فاجازه ببغلة سنية وآلاتها وممها ثلثمائة مثقال ذهباً ونخت قاش ذكر هذا وما قبله الاربلي قال: وكنت بماردین فيسير لصاحبها الملك المظفر هدية تشتمل على مملوك صغير تركي وآخر رومي ونخت قاش منوع من الحرير وسجادة وكتاب صغير من تصانيفه فرد الملك المظفر الجميع وقبل السجادة والكتاب واجازه عليهما باثني عشر الف درهم وقال: هذا القدر هو الذي ينبغي ان يقبل من العلماء اما كتاب من فوائدهم واما خرقة من بركاتهم . ولم يحمل (!) الا في دولة غازان فانه كان يینه وبين رشيد الدولة كراهية في النفوس بين الشخصين لأن قطب الدين كان يتنص كثيراً برشيد الدولة وبتصانيفه ويستجبه ويحط عليه

وقد صنف تصانيف في تفسير الكتاب العزيز وفي غيره وكان قطب الدين يظهر تقصها ويكتف عن عورتها قلت: وتمدحني بعض شيوخنا عن قطب الدين انه لما بلغه ان الرشيد قد شرح القرآن العظيم قال لاصحابه ايه هاتوا التوراة حتى اشرحها قال الاربلي وتمكن رشيد الدولة من دولة غازان فاشاع انه يريد ان يقتل قطب الدين ثم ظهر انه قتله بقطع رزقه الذي كان مقرراً على الدولة ومبلغه ثلاثون الف درهم فقال

لغازان هذا رجل فقيه « ايش » يعمل بهذا المال كله هذا تضييع هذا يكفيه اثنا عشر الف درهم وكان غازان بخيلاً فاصنى الى قول رشيد الدولة وقطع سائر ما كان لقطب الدين من المبلغ المذكور وبعد مدة طويلة سعى فيه حتى اطلق له في كل سنة اثنا عشر الف درهم قال : وكان قطب الدين قد بيت مع رشيد الدولة وعجز عن تلافي ما افسد وعجز عن رضاه قال لكن كان قطب الدين سميداً في عقله وعمره وتصانيفه واصحابه فاثار ذلك عنده شيئاً لكنه كان خائفاً لأن يسمي رشيد الدولة في قتله قائمه الله تعالى منه قال الاربلي واخبرني التاجر الشمار قال ولما تظاولت علة الشيخ قطب الدين الشيرازي واحس بالموت طلب اليه الصدر زين الدين علي بن فخر الدين بن عبد السلام الطيبي وقال له ياخواجه زين الدين اريد من انعامك ان تتولى امر تجهيزي ودفني فاني مارأيت ان اضع هذه المكرمة الا عندك لاني شاهدت رغبتك في فعل الخيرات والمبرات فاجاب زين الدين بالسمع والطاعة قال ولما توفي قطب الدين اتفق زين الدين على جنازته وتجهيزه ودفنه وايام العزاء سبعة آلاف درهم ومائتي درهم ومن ذلك انه اشترى سبعة آلاف ذراع قماش قطن ايضاً وفضلها قصاناً وعماماً للايتام والارامل والبسها سبعمائة انسان من الفقراء والتلاميذ الاثني عشر قطب الدين وطائفة من الايتام والارامل فكانوا يدي الجنازة يكون وينديون وجلس مدة ايام العزاء للناس والتزم اطعامهم ومهامهم وما هو من كلف العزاء لمثل هذا الميت . قال الصدر شمس الدين : وما رأيت احداً من الرؤساء اطول من نفس قطب الدين الشيرازي في الشفاعات لذوي الحاجات وذوي السلطان كان اذا جلس الى امير او وزير او قاض يخرج اوراقاً من جيبه نحو عشرين أو ثلاثين قطعة ويشفع في الجميع وكان غالبها يقضى وما يرد الا القليل وكان كثيراً ما يشاهد من الأمراء والأكابر ملاً من كثرة شفاعاته فلا يلتفت الى ذلك الملل ولا يترك تردده اليهم ويقول ولاي شيء خلتوا وخلفنا وما نفعنا بلجاه اذا لم تقض حاجات الناس اذا تركنا هؤلاء وسجاياهم لا يقضون حاجة المسكين أو عاجز

محروم فنحن نسوقهم الى فعل الخير قهراً وتجبلاً عليهم حتى يؤجروا ونؤجر نحن معهم  
وتقضي حوائج الناس الملهوفين العاجزين كان هذا دأبه يفعل غالب أوقاته الخير بجاهه  
وماله وعلمه رحمه الله

## تسامح العطاء

يظن من لا عهد له بدرس مشاهير رجال الاسلام انهم كانوا جيايرة لا يحسنون  
غير البطش والكر والفر على ان الباحث في سيرهم يراهم من أشد الأهم حرصاً على  
على ما فيه قوام عمرانهم ولم يكن في قلوبهم غالباً شيء مما يقال له تمصب أو تحزب بل  
ساموا رعاهم سياسة العدل لم يجابوا ولم يداجوا فقدروا الكفاءة آت قدرها ولم يعتبروا في  
مضالهم إلا أهل الفناء والعلم . وربما لا يصدق الاغمار في هذه الاعصار لو قلنا لهم<sup>(١)</sup>  
ان معاوية بن أبي سفيان اصطفى لنفسه ابن آثال النصراني من أطباء دمشق وأحسن  
اليه وكان كثير الافتقاد له والاعتقاد فيه . وصحب تياذوق الطيب الحجاج بن يوسف  
التقي المتولي من جهة عبد الملك بن مروان وخدمه بصناعة الطب وكان يعتمد عليه  
ويشق بمداواته وكان له منه الجلمكية الوفرة والافتقاد الكثير

وخدم جورجس بن جبرائيل الخليفة المنصور وكان عظيماً عنده رفيع المنزلة ونال من  
جنته أموالاً جزيلة والمنصور هو الذي يقال له الدوانيقي لبخله . وخدم بختيشوع بن جورجس  
هرون الرشيد وتميز في أيامه وكان رئيس الأطباء كلهم في بغداد . وكان جبرائيل بن  
بختيشوع بن جورجس خطياً عند الخلفاء رفيع المنزلة عندهم كثيري الاحسان اليه وحصل  
من جهتهم من الاموال ما لم يحصله غيره من الأطباء وكان مكيناً عند جعفر بن يحيى بن

(١) اتخذت طبقات الاطباء مرجعاً في كتابة هذه الرسالة والغالب اني أنقل المقصود من عبارة